تذكرة الوفاء - جناب نبيل الأكبر آقا محمد القائني

حضرة عبد البهاء

مترجم. اللغة الأصلية الفارسية

جناب النبيل الأكبر آقا محمد القائني – تذكرة الوفاء – آثار حضرة عبدالبهاء

﴿ هو الله ﴾

كان ضمن تلاميذ الشيخ مرتضى، المجتهد الشهير في النجف الأشرف، شخص لا نظير له يُدعى آقا محمد القائني الذي لقّبه حضرة جمال القدم بِ النبيل الأكبر، وكان هذا الشخص الجليل متفوّقًا على جميع تلاميذ ذلك المجتهد بدرجة أن معلّمه قد استثناه ومنحه إجازة الاجتهاد مع أن المرحوم الشيخ مرتضى لم يَمنح أحدًا إجازة الاجتهاد غير هذا التلميذ. وفضلاً عن كل هذا فقد كان النبيل الأكبر غزير المادة متمكّنًا من حكمة الإشراقيين ومباحث العرفاء وأنواع المعارف الشيخيّة والفنون الأدبية بدرجة تفوق حد الوصف. وبالإجمال: كان شخصًا جامعًا قويّ الحجة والبرهان وقد أصبح شعلة رحمانية وسراجًا مضيئًا وعطّر مشامّه بنفحات القدس واستنار بنور الهدى بإيمانه بالبهاء فأوقد في مشكاة وجوده مصباح الوجد الكليّ والشغف والوله حتى صار كالحوت السابح في خضمّ العشق المتماوج.

وبعد أن نال درجة الاجتهاد بكمال التفوق من شيخه ظعن إلى بغداد حيث فاز بشرف اللقاء (لقاء حضرة بهاءالله) واقتباس الأنوار من شجرة السيناء المباركة وما لبث أن استولت روح الأمر على جميع أركانه ودبّت في عروقه حمية الإيمان بدرجة جعلته في هياج مستمر.

وبينما كان ذلك الرجل الجليل (النبيل الأكبر) المحترم جالسًا على الأرض ذات يوم في محضر النّور المبين (حضرة بهاءالله)، وإذا بالحاجي ميرزا حسن عمو معتمد المجتهدين في كربلاء قد حضر ومعه زين العابدين خان نخر الدولة. ولمّا شاهد حضرة النبيل الأكبر جاثيًا على الأرض بكمال الأدب والخضوع والخشوع أخذه العجب وهمس في أذن النبيل قائلاً: "يا جناب الآقا ما الذي أتى بك إلى هنا؟" فأجابه جناب النبيل الأكبر قائلاً: "نفس الغرض الذي أتيت أنت من أجله". فكان هذا الجواب، وأيم الحق، سبب اندهاش الحاجي ميرزا حسن عمو وزميله لعلمهما أنّ النبيل الأكبر مشهور بامتيازه وتقواه وتفوّقه على سائر المجتهدين وأنّ اعتماد الشيخ مرتضى الجليل كان على النبيل بدرجة عظيمة جداّ.

وقصارى القول: إن حضرة النبيل قصد بعد ذلك إيران وألقى عصاه في إقليم خراسان حيث أدّى له أمير إقليم قائن نهاية الاحترام في أول الأمر معتبرًا حضوره مَغْنَمًا لا يقدّر حتى اعتقد الأهلون أن نفس الأمير صار مغرمًا بجناب النبيل ومن عشّاقه المتعلّقين به لعظيم فصاحته وعلو كعبه في مختلف العلوم والفنون وهذا أدّى أيضاّ إلى احترام الجميع للنبيل "والناس على دين ملوكهم".

فمرّت عدة أيام على حضرته كان خلالها مغمورًا بالتعزيز والاحترام ومع كل هذا، فلم يقدر على كتمان الحقيقة التي أشعلتها في فؤاده نار محبة الله الموقدة وتملّكته عوامل الحيرة والاندهاش بدرجة أنّه ترك جميع الأعمال وأخذ في خرق الحجبات بما استطاع من قوة على حد قول القائل: (ما ترجمته):

جاهدت بكلّ قواي حتى ألبس من العشق ثوبًا

غير أني ذبت في طريقي وأقمت على النفس حربًا

أما إقليم قائن فقد أضاء بنور الحقيقة وآمن العدد الكثير من الأهلين. ولمّا اشتهر حضرته بعقيدته بين القوم. قام أهل الحسد من العلماء بالنّفاق والشّقاق والسعاية به لدى الحكومة في طهران، فاستفزّ ذلك ناصر الدين شاه على الانتقام فدبّ الخوف في رَوْع أمير إقليم قائن وقام، خوف نفس الشاه، على جناب النبيل ومناوأته. فهبّ ريح الولولة وأُوقظت الفتنة العظيمة من نومها في مدينة قائن وهاج القوم وقاموا يدًا واحدةً على مناوأة النبيل الأكبر والتعرّض له. ولكن عزيمته لم تفتر بل قاوم الجمهور بقلبٍ أصلب من الصخر من شدّة حبّه للمحبوب. وفي النهاية ألقوا القبض على ذلك الواقف على السرّ المكنون وأرسلوه مخفورًا إلى

طهران حيث آقام خالي الوفاض لا يملك قوت يومه وتطاولت عليه الرعاع وانبثت العيون في العاصمة لإلقاء القبض عليه ومعاقبته وأذاه، وذاق من أهل الظلم ضروب الإهانات في كل مكان آوى إليه وكانوا لا ينظرون إليه إلا شزرًا. وبالآخرة أُجبر على أن يلبس طِربوشًا بدل العمامة حتى لا يعرفه المناوئون ويسلَم من تحرّشهم وأذاهم، وكان لا يهدأ عن نشر النفحات في الخفاء بكل همّة ونشاط بإلقاء الحجج والبراهين المألوفة.

حقًا، إنه كان سراجًا نورانيًا وشعلة رحمانية. كان وجوده في خطر عظيم غير أنه كان ملء قلبه الحذر إذ كانت الحكومة مرسلة عيونها عليه والأحزاب في قيل وقال بالنسبة إليه فألجأه كل هذا إلى الرحيل إلى بوخارى وعشق آباد وأخَذَ في إلقاء بيانات الأسرار كالسراج الوهاج، ولم يُثنِهِ شديد الصّدمات ولا عظيم البليّات عن نشر النفحات بل كان يزداد توقّدًا. أما ذلاقة لسانه وتفنّنه في معالجة أمراض المجتمع فحدّث عنهما ولا حرج. كان كالمرهم لِما بالقوم من جراح، يَهدي الناس بكلّ حكمة سائرًا على قاعدة أهل الإشراق والعارفين، يكشف اللّثام عن وجوه الحقائق ويثبت ظهور مليك الوجود بكل حجة دامغة، ويقنع مشايخ الشيخيّة بصريح عبارات كلّ من المرحومَيْن الشيخ أحمد الإحسائي والسيد كاظم الرشتي. أما الفقهاء فكان يقنعهم بآيات القرآن وأحاديث أئمّة الهدى بالدليل الواضح والبرهان القاطع، وكان يعالج كل داء بعلاج فوري، ويمدّ فقراء العقول بما يُلهمهم الصواب. ولكنه أصبح في بوخارى بلا معين وابتلي بصدمات لا حدّ لها، وكانت عاقبة ذلك، الشّهم كاشف الأسرار، الانتقال إلى ملكوت ذي الجلال تاركًا رسالته البليغة وضمّنها الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة. ولكن يد الاغتيال سطت عليها، ولم تشأ يد الأقدار أن تُنشر لتكون سبب تنبّه العلماء والفضلاء.

والخلاصة، إنه وإن كان حضرته محاطًا بالبلايا أيام حياته غير أنه محا وأزال من الوجود أسماء وصيت جميع المشايخ العظام أمثال الشيخ مرتضى، وميرزا حبيب الله، وآيةالله الخراساني، وملا أسدالله المازندراني، وجعل ذكر مشايخ السلف والخلف في خبر كان. أما نجم جناب النبيل الأكبر فسيبقى لائحًا منيرًا من أفق العزة الأبدية لأنه كان على الدوام ثابتًا على الأمر راسخًا فيه، مشغولاً بالخدمة وتبليغ النفوس، ونشر التفحات.

ومن الواضح أن كل عزّة أصابت المرء عن طريق غير طريق أمر الله تنتهي إلى الذلّة، وكل راحة يشعرها الإنسان في غير سبيل الله تنتهي إلى المشقّة والعناء، وكذلك كل ثروة تنتهي إلى الفقر والمسكنة.

ومما لا ريب فيه أن جناب النبيل الأكبر كان آية الهدى والتقوى في الأمر المبارك، مضحيًّا بالنفس والنفيس بكل سرور وانشراح وقد عاف العزّة الدنيوية وأغمض عينيه عن الغِنى والجاه والتربّع في دسوت المناصب وفكّ نفسه من أسْر التقييد وجرّدها من جميع الأفكار غير المجدية. وكان عالمًا فاضلاً ماهرًا في

جميع الفنون، مجتهدًا لا يُجارى، حكيمًا عارفًا، طويل الباع في العلوم الأدبية، فصيح اللسان بليغ التعبير، نطوقًا لا يضارع، وكان في حدّ ذاته جامعة بمعنى الكلمة وكانت خاتمة المطاف بادية الألطاف. عليه بهاءالله. نوّر الله مرقده بأنوار ساطعة من الملكوت الأبهى وأدخله في جنة اللقاء وأخلده في ملكوت الأبرار مستغرقًا في بحر الأنوار.